مقدّمة الكتاب

في أنّ المفهوم نواة الفكر

إنَّ الاهتمام بالمفاهيم ليس من منزلة النَّوافل، وإنما من منزلة الفرائض المعرفية التي ترسم مسار التَّفكير، وتحدد الذّاتية الحقيقية لمواصفات ومباني الأشياء، ذلك أنَّ المفاهيم تحدد طبيعة الإشكال، وتعكس طبيعة النَّماذج المعرفية التي تدور في إطارها المعارف والعلوم، ولمَّا كانت المعارف في أنساق الفكر المعاصرة، قد تشعّبت وتداخلت، وأصبح من الظَّلامية الاستناد إلىٰ مفهوم واحد في توضيح الأشياء أو تفسيرها، فإنّه من الأقْوم منهجيًّا، تبنّي الأفق المعرفي الذي يقرُّ بأنَّ المفهوم الواحد، لا يمنع فقط فهم معرفة المعارف والعلوم، وإنما يمنع الذّات من أن تدرك ذاتها بصورة مركبة وناعمة، ويكون المآل هو المعرفة المعلولة والعقل الأعمىٰ والمَنْزع الذي يُبصر بعين واحدة، ودلالة هذا، بَلْوَرة المنظور المركب في النّظر إلىٰ الموضوعات، والاعتراف بخصوبتها، وتعقيدها، ومن أنها ليست موضوعات جامدة تدرك بمنظور أحادي، وإنما تمارس ضغطها، وتفرض سلطانها علىٰ العقل المفكر، بما يجعل الحقيقة تدرك مركبة من أوجه متعدّدة وليس

وجهًا واحدًا، أو مفهومًا واحدًا، أو وحدةَ تحليلٍ واحدة.

إنَّ الإقرار الإبستمولوجيّ المعاصر، بأن المعرفة العلمية اليوم معرفة مفاهيم أكثر منها معرفة وقائع، يقدم لنا فرصة أخرىٰ؛ لكي نولي المفهوم أهميته التي يستحقها، خاصَّة أنَّ حقل الفلسفة والأفكار هو أكثر الحقول اشتغالًا علىٰ المفاهيم من جهة مناهج تجديدها، ومناهج إبداعها، ومناهج استقبالها، ومناهج تفعيلها في حقل المعارف؛ فالمفهوم يُحدّد الإشكال، ويُعيّن المعنىٰ والدّلالة، ويوجّه الفعل نحو مقصود المفهوم.

وإذ تعيّنت القيمة الحيوية للمفهوم، فإن طريقة الفلسفة في مُنَاطَقة المفهوم، لها خصوصيتها المعرفية والمنهجية، فالمفهوم ليس مجرد وعاء اصطلاحي أو مدلول لغوي، إنّما المفهوم إذا ما قرأناه بلغة علم العلامات أو السيميولوجيا يدل علىٰ شيء آخر، أكثر من دلالته علىٰ ذاته الظّرفية والمتعيّنة، وهذا الشَّيء الآخر هو صورةٌ معرفية، أو نموذج إدراكي، أو رؤية إلىٰ العالم، تعكس رحابةً أوسع في المعنىٰ، وتجيب عن أسئلة أعمق، هذا ما نجده ضمن المفاهيم الفلسفية التي نصادفها، ونحن نطالع التَّاريخ، من مفهوم المثال إلىٰ مفهوم الأيس إلىٰ مفهوم الحكمة إلىٰ الأنا الواعية إلىٰ الشيء في ذاته، إلىٰ العقل المطلق . . .

إنها مفاهيم تبدو مقطوعة الصلة بما قبلها، لكنها من منظور طريقتنا في القراءة التأويلية الجينيالوجية، نُبصر فيها خلية ضمن نسيجٍ ضامٍّ، أو نبتة في حقل مُزهر، أو عنصرًا في بنية مركّبة، بمعنىٰ

أنَّ مفاهيم الفلاسفة لا تبدو موضوعية إلا عندما نتأمّلها من داخل نسيجها الضّام، الذي يُشَرعِنُ لها الوجود والتّداول من سياق المقام التّأويلي الذي تصدر منه، والمُناطَقَة الفلسفية مع المفهوم، تحرره من الصورة السَّائدة، من أنّه مفهوم كلي ومعنوي لا يتصل بالسياق.

إنَّ المفهوم في بنية التّفكير الفلسفي، يدلُّ علىٰ شيء آخر، أكثر من دلالته علىٰ معناه المباشر، وبالتالي فقيمته تكون ضمن إرادة المُناطَقَة المعرفية الباحثة عن السُّلالات الأصلية، أو الجذر الذي يزود المفاهيم بنسغ الحياة ومبرر التداول والحركة.

من أجل هذا، يأتي هذا الكتاب، من أجل أن يفتح هذه الحوارية المعرفية، مع عدد من المفاهيم التي يجري التداول بشأنها في الدّرس الفلسفي اليوم، فالكتاب في صميمه ينحو منحىٰ الكتابة البيداغوجية التّعليمية، أكثر من التفكير بصورة تأسيسية لشَواغل المفهمة، ومهمومات الاصطلاح، فهو تقريب مفهومي وتيسير لغوي، وإبانة معرفية عن النَّماذج المعرفية والأنساق الفكرية التي تُلون المفاهيم بالمعاني، وتمنحها قيوميتها الشُّهودية، وتكشف عن المباني الخفية في أنظمة المَفْهمة الفلسفية، حيث إنَّ طبيعة النموذج الإدراكي للعالم، والمصادر الأولىٰ للنَّفس هي الأصل البعيد الذي يمنح الدّلالة، ويبني المعنىٰ، ويرسم معايير التواصل وشروط الإمكان.

لذا ترانا أتينا بهذه المفاهيم الفلسفية، من أجل أن تكون بين أيدي الباحثين، حيث إنَّ الغرض المباشر، هو البيان الدلالي لها،

أما الغرض المعرفي، فهو تعويد العقل علىٰ أن يُبصر في المفاهيم علامات أو منافذ إلىٰ مصادر النّفس، أو البنىٰ الأوّلية للتّفكير، بما هي بنىٰ تتحكم فيها معايير الفصل والوصل، والحذف والإضافة، والاستجلاب والاستبعاد، وهذه الآليات، هي ما ينطبق علىٰ المفهوم بصورة واضحة، ومن هنا فالمساءلة التّأويلية للمفهوم؛ تُلْفت النّظر إلىٰ جوانب مظلمة أو مبادئ تحتية، ليس من الضّروري للفيلسوف أن يُفصح أو يُصرّح بها؛ لأنها تنفذ إلىٰ عقله وتظهر في قسمات فكره.

إنَّ الوعي بمصادر النّفس هو الطريق الأقوم إلىٰ الوعي بشواغل المفهمة، ولا ندّعي أنّنا أحطنا بهذه الشَّواغل المفهومية للمفردات الواردة في الكتاب، بقدر ما نبَّهنا النّظر إلىٰ أهمية هذه المفاهيم، وأنّها ذات وزن ثقيل ضمن راهن الإشكال الفلسفي الحي، فمفهوم الدّين والرؤية إلىٰ العالم والحقيقة والفعل والقيم . . . برأينا تعكس قلقا فلسفيًّا حول كيفية تدبيرها تدبيرًا أقوم، وليس إخضاعها لنصائح العقل الاختزالي التَّبسيطي، فهذه العائلة من المفاهيم تنتمي إلىٰ عالم الرّمز والمعنىٰ، وليس إلىٰ عالم المادة والكم، وهذا سر استثنائها وتفردها، والفيلسوف لا يكون مُنتهلًا إلاّ من هذا العالم الذي ينقذ فيه المفاهيم، بالانطلاق من الوجود المتزامن للمادة والروح علىٰ حدٍّ سواء؛ من هنا، فإن الفيلسوف لا يكون كذلك إلاّ إذا أتىٰ بمفاهيم تجديدية إلىٰ الفكر،

وهذا التّجديد في الفكر سيكون دافعًا وحافزًا ورافعًا كي يتم إبداع صورة تجديدية للحياة.

نأمل أن نكون قد وجهنا البصرو ألقينا السمع إلىٰ نواة التّفكير الفلسفي؛ أي: المفاهيم، والمفاهيم الواردة في سجل هذا الكتاب، نأمل أن تكون نماذج مُثلىٰ علىٰ حال الفكر الفلسفي الرّاهن، ومفاتيح لمعرفة شواغله.

مدينة سطيف، الهضاب العليا الجزائر

يوم ١١ ماي ٢٠١٦